

سوق أم درمان الكبير (دراسة تاريخية)

كلية النصر التقنية

د. صديق بابكر احمد دفع الله

المستخلص:

الهدف من هذه الدراسة هو القاء الضوء على واحد من اهم وابراز المواقع الاثرية بالسودان سوق امدرمان الكبير والذي ارتبط ظهوره وقيامه بالثورة والدولة المهديية في السودان. استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي والمنهج الوصفي لما لهما من اهمية ومناسبتهما لهذه الدراسة وقد توصلت هذه الدراسة إلى إرتباط هذا السوق بالتطور الحضاري والثقافي للسودان مساهمة هذا السوق في التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي والنهضة الاقتصادية التي عمت جميع ارجاء السودان.

Omdurman Grand Market (historical study)

Siddig Babiker Ahmed Dafallah

Abstract:

This study aims at highlighting one of a great historical sites in Omdurman town since mahadiya era and till now. The researcher adopted the historical and descriptive approach in this study. The study also came to explain the contribution of the market in the social, cultural, economic and political development in Sudan.

أهمية ودور سوق امدرمان الكبير في التعايش وترقية وتطوير النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في السودان:

- تشمل هذه الورقة على عدة محاور تتمثل في :-
- نشأة مدينة امدرمان وتخطيط السوق وتنظيمه و منذ عهد المهديّة مروراً بالعهد الثنائي ثم العهود الوطنية .
 - استقرار السكان الوطنيين وابناء الجاليات الاجنبية بمدينة امدرمان والتعايش والانصهار بين هذه المكونات.
 - اثر السوق على الحياة الاقتصادية .
 - اثر السوق ومساهمته في إثراء الحياة الاجتماعية والثقافية بفروعها هذه المساهمة والمعلومات اكثرها عايشته عن قرب ولا شك ان هناك الكثيرين غيري الذين لهم الكثير من المعلومات والذكريات عن هذا السوق . فالأجيال تتعاقب والحياة تسير وتتجدد. وانا هنا اكتب واسجل لفترة وسيطة هناك من عايش السوق قبلي ومنهم من هو بعدي وكل يساهم بما عنده لنوثق لهذا السوق الذي هو الاكبر والاشهر على نطاق بلادنا الحبيبة كلها.
 - لاشك ان ظهور وقيام الاسواق يعتبر ظاهرة حضارية من مراحل تحضر الانسان ،وقد توصل آر كل Ark ell اول مدير لمصلحة الآثار بالسودان 1938-1944م توصل الى ان موقع خور ابي عنجة الحالي كان مستعمرة مسكونة في العصر الحجري القديم 100.000-12.000 ق.م حيث اعتمد انسان هذه المنطقة في تلك الفترة المبكرة على الصيد وجمع الغذاء وصنع ادواته من الحجر الرملي⁽¹⁾ Nubian Sandstone.
 - تقع مدينة امدرمان عند ملتقى النيلين الابيض والازرق حيث الدرجة 15 والدقيقة 38 من خطوط العرض الشمالية والدرجة 32 والدقيقة 29 من خطوط الطول الشرقية .ويعتبر هذا الموقع ذو اثر كبير في سرعة تطور وترقية هذه المدينة التي كتب لها ان تصبح قبلة اهل السودان ومحط امالهم ومقياس تقدمهم ومبعث حبههم وإعجابهم .فقد اصبحت ملتقى طرق لتجارة غرب السودان من دارفور وكردفان ومنها مرت التجارة نحو الجنوب واليها انسابت تجارة الشمال. ومع التقدم

العمراني وتشبيد الجسور التي تربطها بالخرطوم والخرطوم بحري تعاضمت اهمية هذه المدينة في مجالات التجارة والصناعة والنواحي الثقافية والخدمية ولا ننسى ان نهر النيل الذي ترقد هذه المدينة على ضفته الغربية منذ القدم ظل يقوم بدور كبير في مجال النقل والتوصيل بينها واطراف السودان . وللمرحوم المربي الفنان الاستاذ خالد ابو الروس عبارة جديرة باوقوف عندها وهي قوله: إن اهل امدرمان هم اول من شرب ويشرب من ماء النيلين ممزوجاً.

حينما اشتعلت الثورة المهديّة بالسودان 1881م وبدأ زحف الانصار نحو الخرطوم عاصمة السودان انذاك بنى الجنرال غردون طابية من الطين في امدرمان ليقى بها الخرطوم من ضربات الانصار ولما حضرت جيوش المهديّة بأبي سعد وتعرضت هذه الحامية لهجوم الثوار فاستسلمت وبإستلامها بات تحرير الخرطوم وشيكاً

بعد تحرير الخرطوم ودخول قوات المهدي للعاصمة لم يشأ ان تستمر عاصمته الجديدة ومركز دولته بالخرطوم فعزف عنها وعبر نحو امدرمان وشيد بها معسكره الذي عرف ببقعة امدرمان واتخذها مركزاً لدولته وسار على نهجه خليفته الخليفة عبدالله بن السيد محمد . هذا وقد تم وضع اساس هذه المدينة التي اسست على التقوى في 13/فبراير 1885م ورغم زوال دولة المدية بعد العام 1899م وطلب المستعمر من السكان هجر المدينة وتخريبها إلا ان العكس هو الذي حدث حيث تمسك السكان بمدينتهم وقوميتهم وعزتهم التي استمدوها من هذه المدينة واصبحت تمثل لهم الامل في البعث والخلص وعودة الامجاد.

موقع السوق :

اخط الخليفة عبدالله بن السيد محمد هذا السوق في بدايات حكمه 1886م وقد اخط الخليفة السوق في وسط المدينة تقريباً وبالتحديد في الناحية الشمالية الغربية للمدينة حيث يسهل على السكان من كل اتجاه الوصول للسوق وكان السوق مبنياً من الرواكيب والقطاطي ويفصل بين الدكاكين أزقة ضيقة متعرجة⁽²⁾. ومن اقدم الخرط لسوق امدرمان خريطة رسمها الايطالي باليو روزقنولي Polio Rossignoli احداى الخليفة في عام 1886م وتوضح هذه الخريطة ان السوق كان يتكون من ثلاثين قسماً وبه من البضائع المعروضة القطن والسجاد والحصير وحطب الوقود وخشب البناء والاحذية والعناقريب واللحوم والخضروات والملح والذهب والعسل والبقوليات وبعض السلع المستوردة من اوربا مثل السكر والحلى . وهناك اقسام مخصصة للحلاقين والمقاهي والمطاعم ومخازن الذرة والتمور وزرائب لبيع المواشي واماكن للترزية والنجارين والحدايين وصياغة الذهب وسوق الجلود وسوق الخضار والجلود المدبوغة وسوق النساء⁽³⁾.

تنظيم السوق :

هذا وقد انتظمت في السوق كل السحنات والممل فهناك ابناء البلد من دناقلة وجعليين ونوبيين وبقارة وهناك ابناء الجاليات من مصريين ويونانيين وافارقة ويمينيين وغيرهم وكان للنساء مكان خاص فقد سمح للنساء اللاتي خرج ازواجهن للحرب بالخروج لكسب رزقهن حيث يبعن الزيت والشحم الودك والتوابل والادوية والذرة . وقد عين الخليفة عبدالله محتسباً للسوق ومنحه بعض السلطات القضائية للنظر في بعض المسائل التي تتطلب البت السريع كما انشأ الخليفة محكمة السوق وهي تختص بمسائل البيع والشراء. وكان من ضمن اهم تنظيمات السوق

اصدار العملة وهذه تعتبر من اهم انجازات دولة المهديّة وقد اصدر المهدي منشور لتداول العملات وكذلك فعل الخليفة عبدالله حيث اصدر كذلك منشوراً في 1885م امر فيه بتداول جميع انواع الريالات والجنهات والقروش ونهى عن تزوير العملة. والواقع ان المهديّة قد ضربت عملتها على زمن الخليفة وكانت اهم الوحدات المتداولة تتمثل في الفرجالله -الجنية المصري -الجنية الافرنجي -الجنية ابوبنت-والبنديقي - والمجري- والخيرية والريال المجيدي والبرقوته والسعدية .

اثر السوق على الحياة الاقتصادية :

في فترة المهديّة كانت مدينة امدرمان وبالتحديد سوقها مركز النشاط الاقتصادي والمحرك لكل الانشطة الاقتصادية على نطاق كل البلاد. ولما تم للاستعمار السيطرة على مقاليد الامور بالبلاد حاولت الادارة الاستعمارية اجبار سكان امدرمان على هجرها ولكن السكان الوطنيين تمسكوا بعاصمتهم الوطنية ورغم انتقال مركز الحكم والادارة الى الخرطوم الا ان امدرمان سرعان ما بدأت تستعيد قها وعافيتها ومره اخرى النشاط يدب في اوصال سوق امدرمان الكبير واصبح هذا السوق رغباً عن انفس المستعمر محور النشاط الاقتصادي . والى امدرمان انتقلت كل انواع الجارة تقريباً. وجاءت مجموعة التجار الارمن واليهود والمصريين واليونانيين والهنود واليمنيين والشوام وغيرها من الجنسيات تبحث عن مواطنين لأقدامها وتؤسس الشركات والبيوتات التجارية والتي كان معظمها ذو ارتباط بفروعها بالخارج واقاليم السودان . كما كان للتجار الوطنيين اكبر الاثر في الانتعاش التجاري الذي عم البلاد انطلاقاً من سوق امدرمان الكبير .

ادى انفتاح السودان تجارياً على العالم الخارجي الى سرعة الحراك الاقتصادي وجذب رؤوس الاموال وتزايد حركة الاستيراد خاصة مع اشتها السودان بالمساهمة في التجارة الدولية والصمغ والسمسّم والبقول السوداني واللحوم وجلود الحيوانات المذبوحة. وكان من اشهر التجار بسوق امدرمان الكبير في تلك الفترة آل البرير وآل حسن عبدالمنعم وآل ابوالعلا والبرقدار وعثمان صالح وسوار الذهب وعبدالمنعم محمد . وودبكار والامين عبدالرحمن (الصائغ) ومحمد الامين حامد والبشير الشيخ وآل البلك والكثير غيرهم في مختلف المجالات. وهذا كان سوق امدرمان الكبير يمثل مساحة للتعايش وحسن التعامل مع ابناء الاجاليات من اليهود مثل اولاد مراد ، وهنود وشوام مثل الخواجه لاليت وجيسو وبانو وابوشنب الهندي والمصريين مثل آل الطوخي والأرمن مثل آل يررانت واغاريق وغيرهم ففي سوق امدرمان تجد كوستي كربياني صاحب واحد من اجود افران الخبز وابوبكر اليماني صاحب الفرن الشهير باول شارع كرري وكريبت الميكانيكي وبائع زيوت السيارات وبنويق انطون صاحب واحدة من افخم البقالات بالسوق ، وارونت صاحب اول بقالة افرنجية بالسوق . اما الاهل الاقباط فمنهم تادرس ويسبي وتوفيق داؤود ووديع شنوده وفيكيتورالوزان وكثيرون ممن تعاونوا مع الآخرين في نهضة هذا السوق وتعميره.

لقد كان سوق امدرمان ومنذ اختطاته في فترة المهديّة مروراً بالعهد الثنائي والعهد الوطني كان هذا السوق يمثل شكل سوق المدينة العربية حيث تنظيم به المتاجر حسب ما يعرض بها من بضائع او بحسب جنسيات التجار فمثلاً كان هناك سوق الحدادين وسوق الخياطين وسوق القش وسوق العيش الحبوب وسوق العطارين والمنجدين والسمكريه . وهناك اقسام وشوارع لتجار من جنسيات محددة مثل شارع او سوق الشوام وسوق الخراطين وشارع اوسوق

الضاغة . وفي سوق امدرمان تجد تجار الجملة وخاصة الاقمشة وحتى اليوم لا تجد في السودان تجار للجملة في الاقمشة الا بسوق امدرمان ' واشهر تجار الاقمشة بامدرمان محمد احمد عباس والبشرى ادريس وهناك محلات اشتهرت ببيع الاقمشة في مناطق اخرى ولكنها لا تضاهي سوق امدرمان سوق امدرمان . وهناك في سوق امدرمان اصحاب الحرف والمهن الذين ساهموا بقدر كبير في رفع شان هذا السوق ' ففي سوق امدرمان تجد السمكية والجلادين ومصنعي الاحذية البلدية المراكيب والخياطين المهرة في التفصيل البلدي مثل الاسطى عابدين ومرجان وعبدالرحيم صباح الخير وغيرهم. وهل ننسى ما اشتهر به سوق امدرمان ولازال من مهنة لعطارة واشهر من مارس هذه الاعمال النفراوي عثمان رحمة والجنيد عثمان رحمة واحمد عثمان الرباطي واحفادهم حتى اليوم، وتحتينا من هنا للاح الصادق النفراوي الذي لزال يمارس باهتمام كبير وفن وادب هذه المهنة السامية. ومن في سوق امدرمان لم يمر بسوق الزنك اللحوم والخضار وسوق الدواجن والسمك وزنك النسوان اللائي كن يععن الطواقي المشغولة باليد . وفي سوق امدرمان تجد اشهر بائع فواكه وهو ينادي على بضاعته بصوته القوي انه العم جادو وفي وسط سوق الخضار هناك البائعان الفنانون احمد حسنم جمعة وميرغني المامون. والفنان صالح سعد والشاعر علي محمود التنقاري وعبدالرحمن الريح. ومن أشهر الصيدليات التي قامت بسوق امدرمان صيدلية ابونخلة وقبلها كانت توجد صيدلية لطفي شمال ميدان المحطة الوسطى وصيدلية امدرمان جنوب الجامع الكبير وكان يديرها الاستاذ احمد داؤود)هو من رجال الحركة الوطنية تخرج مهندساً من كلية غردون وهو من اشهر شخصيات امدرمان كان يحرص على الذهاب يومياً للمقابر للاشتراك في تشييع الموتي (ثم تعددت الصيدليات فصارت هناك العديد منها اشهرها صيدليه توما غرب المحطة الوسطى وصيدلية ابونخلة وصيدلية ابراهيم. ولانه ولابد من تناول الطعام والقهوة والشاي والمثلجات ففي سوق امدرمان اشتهرت بعض المطاعم مثل مطعم العم مصطفى صبير ومطعم عبدالرحيم عوض عثمان ومطعم التيسير ومطعم الرياضيين بالبوسنة ومقهى ود الآغا وشديد واحمد خير ويوسف الفكي وجورج مشرقي والمقاهي الشعبية مثل مقهى خلف الله الكرسي وقهوة وراق وقهوة شديد وبالسوق العديد من البنوك التجارية الى جانب مبنالبريد الذي كانت تتم عن طريقة الحوالات فهناك بنك باركليز وتحول منذ 1970م الى بنك الخرطوم والبنك العثماني الى بنك الوحدة ثم ضم بنك الخرطوم وبنك مصر وبنك النيلين والبنك السوداني السعودي والبنك الاهلي والبنك السوداني الفرنسي وغيرها واول من اقام من وكالات للسفر والسياحة بامدرمان هو السرعباس وكانت وكالة للسفر جواً وقطع تذاكرالسكة الحديد. ولقد كانت العملة المتداولة بالسوق بالبلا عموماً في فترة الحكم الثنائي بعد المهديية هي العملة المصرية وبعض الفئات الانجليزية الصغيرة وذلك حتى استقلال السودان حيث تم اصدار العملة الوطنية بعد الاستقلال وقد تم ذلك في عهد الحكومة الوطنية الثانية في العام 1956م برئاسة عبدالله بك خليل. نسبة لعراقة واهمية هذا السوق فقد اهتم السواح والاجانب بزيارة والوقوف على مابه من حرف ومهن ومعروضات وبضائع ولازالت الاعداد المتزايدة حتى اليوم من الزوار والسياح تتقاطر عليه مما يلقي بعبء كبير على السلطات والتجار والحرفيين لمزيد من الاهتمام بالمداخل والمخارج والمواقف وفتح الشارع لتنساب الحركة في يسر وبدون عوائق.

أثر السوق ومساهمته في إثراء الحياة الاجتماعية الثقافية :

لقد كان لسوق امدرمان وما ضم من عقد نفيس من التجار كان له دور كبير ومتعظيم في دفع وترقية واثراء الحياة الاجتماعية والثقافية بمختلف افرعها. فالتجار من امثال احمد حسن عبدالمنعم وسوار الذهب وعثمان صالح ومحمد احمد البرير والبرقدار وغيرهم كان لهم القدر المعلى في انشاء اول صراح للتعليم الاهلي ((مدرسة امدرمان الاهلية ((في العام عندما تبرع الشيخ احمد حسن عبدالمنعم بمنزله وكتب شيكاً على بياض تحديداً للمفتش الانجليزي الذي اراد ان يعجز الوطنيين ويعرقل قيام هذا الصرح والذي 1927 قدر له ان يكون البداية القوية في النهضة التعليمية التي انتظمت كل القطر . وفي داخل سوق امدرمان شمش المسجد الكبير بمآذنه دايعاً للصلوات الخمس بمختلف اليه التجار عقب صلاة المغرب للدروس والتفقة على ايدي شيوخ اجلاء. وداخل هذا المسجد المبارك تأسس معهد امدرمان العلمي في العام 1912م منارة للعلم والرقى ومازال حتى تحول الى واحدة من اكبر واهم جامعات البلاد جامعة امدرمان الاسلامية . وشرق المسجد الكبير كانت هناك مكتبة الثقافة لصاحبها الشيخ حسن بدري وكان بها صالون لجماعة اسمت نفسها (الكتيبة) ، وهم شعراء في الاخوانيات يتزعمهم اميرهم الاستاذ المرابي الكبير النور ابراهيم امير الكتيبة وللكتيبة شيخها وهو الشيخ حسن البدري بالمكتبة درج تلقى داخله القوائد وهي معظمها في الهجاء وشعر الاخوانيات ويسمى هذا الدرج بدرج السفاسف ومن مرتادي هذا الصالون الاستاذ محمد عبدالقادر كرف والاستاذ امام دويلب وكان يغشاهم الدكتور عبدالله الطيب . وغرب مبنى البريد هناك الندوة الادبية في منزل الايدب عبدالله حامد الامين وكان من اهم حضورها محمد المهدي المجذوب . هذا وقد اشتهر سوق امدرمان بالمقاهي الممتازة والتي يرتادها الادباء والشعراء والفنانون فهناك قهوة يوسف الفكي وهي منتدى للصفوة وقهوة جورج مشرقى وتجد بها الشعراء من امثال عمر البنا و ابراهيم العبادي والسر قدور والفنانين مثل التاج مصطفى وعثمان الشفيح . اما مقهى احمد خير شمال السينما الوطنية فيؤمه الشعراء مثل عبدالرحمن الريح وعوض جبريل واسماعيل وخورشيد والفنانون مثل صلاح محمد عيسى و ابراهيم عوض وغيرهم. والممثلون امثال محمود السراج والسرقدور وخالد ابو الروس والفاضل سعيد وفي سوق امدرمان تجد الحركة السياسية ممثلة في نادي الخريجين الذي تأسس في العام 1918م ومنه انطلقت مؤتمر الخريجين في العام 1938م وما يقيمه هذا النادي من ندوات ومحاضرات واحتفالات . وهناك دار حزب الامة والتي كانت تقوم في مكان دار سينما امدرمان الحالية . اما السينما الوطنية فقد تاسست كشركة وطنية في العام 1942م كمنافس لشركة برامبل او سينما قديس التي كانت تحتل الميدان المطل الآن على محلات جورج مشرقى غرباً. وكانت تقوم اعلى محلات جورج مشرقى الجامعة الشعبية وبها مكتبة للقراءة يرتادها المشتغلون بالسوق وغيرهم مساء كما كانت هناك مكتبة امدرمان المركزية وهي اهم واكبر مكتبة حكومية للقراءة واقامة الندوات والمحاضرات وكانت تحتل مبنى الامة بعد 1958م حيث حولت الى مبنى بشارع مستشفى الارسالية. وفي سوق امدرمان اشتهرت شخصيات ارتبطت بالسوق وارتبط السوق بها وكان التجار ومرتادو السوق يتفاءلون بهم مثل ابوطالب صاحب الاشعار والحكم وابوالدفاع والدخري وبت التور ومهره واحد وموسى ناصر ودنقاش صاحب النكات والطرائف.

لقد انجب سوق امدرمان الشاعر على محمود التنقاري صاحب محل بيع الصيني والاولاني المنزلية شرق الزنك وصاحب الروائع التي تغنى بها الفنانون من امثال عائشة الفلاية) معرض الزهور (و) عشقت ميزاتك (محبوب عثمان وغيرها وانجب عبدالرحمن الريح وعبيد الرحمن الذي تغنى له ابراهيم الكاشف ب)اطير بي فوق بي غرب السوق (وانجب محمد احمد عوض وميرغني المامون واحمد حسن جمعة وصالح سعد والاستاذ مهدي محمد سعيد وغيرهم . ومن قلب سوق امدرمان انطلق صوت السودان في اوائل اربعينات القرن العشرين حينما قامت اذاعة امدرمان في مبنى البوستة والتلغراف القديم مكان البنك التجاري الحالي حيث كان يرتادو السوق والمواطنون يحضرون لسماع الاذاعة امام هذا المبنى وميدان البوسطه سوق الموية وهي تبثهم الاخبار والوصلات الغنائية . ومن الشخصيات التي ساهمت بدور هام في الحياة الثقافية انطلاقاً من هذا السوق ومؤسسته شاعر العيون عبدالله النجيب الذي افنى عمرة موظفاً بالبريد والبرق ولكم اطرب المطربون الذين تغنوا باشعارة حول العيون. ولا ننسى الاخوين محبوب سراج الشاعر المرهف وشقيقة محمود سراج ابوقورة الذي ساهم بقدر كبير في اثناء فن الكوميدياء بالبلاد والشاعر محمد يوسف موسى والشاعر مصطفى سند وعمر الجزولي ومتوكل كمال والكثير الكثير مما لا تسعف الذاكرة بذكرهم . وفي سوق امدرمان كان الشاعر القومي الكبير ابراهيم العبادي يعمل كاتباً تجارياً لأنه كان بارعاً في نظم الشعر الغنائي فقد يتحكم اليه ناشئة الشعراء ومنهم سيد عبدالعزيز وعبيد الرحمن . كما ان حفل زواج التاجر الكبير بسوق امدرمان الشيخ بشير الشيخ هذا الحفل كان عبارة عن مهرجان تبارى فيه شعرا الحقيبة بتقديم ما كُتب في هذه المناسبة السعيدة من اغاني الكبار الشعراء من امثال العبادي والخليفة يوسف الحسن وغيرها.

الخاتمة :

اننا مهما تحدثنا وكتبنا عن امدرمان وسوقها الكبير العامر دائماً فلن نستطيع ان نحيط بهذا الامر نسبة لتشعبة واتساعة ولكننا نختم بان نقول بان سوق امدرمان مثل البوتقة التي انصهرت فيها السحنات السودانية وارتاده ابناء الجاليات من التجار وعشق دروبها وزاقتها الزوار والسياح ومن داخله انطلقت النهضة الاقتصادية والحركة الوطنية والبعث الثقافي لينداح خيراً وبركة نعم ارجاء وطننا العزيز الحبيب.

التوصيات:

1. ضرورة تسهيل حركة الدخول والخروج للسوق وانسياب الحركة.
2. جعل منطقة وسط السوق منطقة سياحية تمارس فيها النشاطات والحرف التي تستهوي الزوار والسياح ودارسي التراث.
3. اطلاق اسماء الرعيال الاول من التجار والذين ساهموا في نهضة السوق على بعض شوارع وميادين ومرافق السوق .
4. زيادة الاهتمام بترقية وصحة البيئة بالسوق ومرافقة.
5. السعي لاعادة فتح بعض المحلات مثل مقاهي يوسف الفكي وجورج مشرفي واعادة تأهيل دور السينما لتصبح جواذب سياحية .
6. ضرورة المحافظة على المباني القديمة باعتبارها مباني تراثية تعكس الوجه الحضاري لتلك الفترات وتشكل جواذب سياحية

الهوامش:

- (1) صلاح عمر صادق، دراسات سودانية في السياحة، مكتبة الشريف الاكاديمية للنشر والتوزيع الخرطوم 2008م، ص 87.
- (2) محمد ابراهيم ابو سليم ، تاريخ الخرطوم ، دار الجيل بيروت ، ط3 ، 1991م، ص 120.
- (3) عبدالقادر احمد عثمان، اسواق امدرمان واثرها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية 1885-1956م، ط1 ، الدار العربية للنشر والتوزيع 2006م ، ص 51.